ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: http://www.jtuh.tu.edu.iq

# The Secrets of Rhetorical Presentation and Delay in The Scenes of The Cosmic Verses in The Holy Qur'an

**ABDUL RAZZAQ FAYYADH ALI.ALGUBOURI**
**MOHANAD KHAZAAL RADAAN AL-RAFAEI**

* *Corresponding author: E-mail* :
**Dr.abdulrazaq67@gmail.com**
الهاتف:07702097723
07727639078

***Keywords*:**
The secrets of introduction
The secrets of delay
The verses of the cosmic scenes
The rhetorical secrets of presentation and delay
Presentation and delay
Context

**ARTICLE INFO**

***Article history:***
Received 4 July. 2021
Accepted 17 Aug 2021
Available online 25 Jan 2022
*E-mail*
journal.of.tikrit.university.of.humanities@tu.edu.i
E-mail : adxxxx@tu.edu.iq

**A B S T R A C T**

First: The method of presentation had a stylistic feature that had a great impact on knowing the properties of speech structures, and the secret in presentation was according to the context and the situation.

Qur'anic words have their significance in the context of the sentence, so it is not possible for a word to be synonymous with another word so that it is completely equal in meaning. Rather, the same word is repeated in more than one context to denote another different meaning in each context. To highlight the meaning in strength and clarity, and helped to portray the scene in the flow and life.

© 2022 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://dx.doi.org/10.25130/jtuh.29.1.1.2022.10

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of

## اسرار التقديم والتأخير البلاغية في مشاهد الآيات الكونية في القرآن الكريم

أ.د عبد الرزاق فياض علي الجبوري / جامعة تكريت – كلية التربية للعلوم الإنسانية
م.م. مهند خزعل ردعان الرفيعي / جامعة تكريت – كلية التربية للعلوم الإنسانية

**الخلاصة:**

تتناول هذه الدراسة جزئية مهمة من جزئيات الاعجاز البلاغي والبياني في نظم القرآن الكريم وهي اسرار التقديم والتأخير في القرآن الكريم وفي مشاهد الآيات الكونية نموذجا ومحاولة بيان اسرار ودقة وروعة ا القرآن الكريم في اختيار الكلمة وموضعها المناسب وكيف جاء أسلوب القرآن في الغاية العظمى من البلاغة والفصاحة، وخرج عن جميع وجوه النظم المتعارف عليها في كلام العرب ،و تكمن مشكلة البحث في وجود دقائق نفيسة ولطائف بليغة لأسلوب التقديم والتأخير الذي عدّه ابن جني إحدى صور شجاعة العربية وقوّة لغتها... وكيف يتنوّع هذا الأسلوب وتتغير دلالته تبعاً لتغيّر السياق وحاجة المقام، فما كان لكلمة أن تتقدم من مكانها دون غاية معنوية وهدف دلالي تريد أن تبثّه في الجملة... والقرآن الكريم

اشتمل بيانه المحكم على هذه الأساليب التي ينبغي الوقوف مع أسرارها ودلائلها، ويهدف البحث إلى الوقوف على أساليب التقديم والتأخير في مشاهد الآيات الكونية ومعرفة لطائفه واسرارها. وتمثل البحث في ثلاث مطالب الأول مقدمة عن التقديم والتأخير والثاني عن التقديم في القرآن الكريم والثالث كان في التقديم والتأخير اللفظي في مشاهد الآيات الكونية .

**كلمات مفتاحية**

**1- اسرار التقديم 2- اسرار التأخير 3- آيات المشاهد الكونية 4- اسرار التقديم والتأخير البلاغية**

**5- التقديم والتأخير 6- السياق**

المقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبفضله وبتوفيقه تدرك الغايات، جوده لا يُحد ونعمه لا تُعد، أظهر قدرته واكمل نعمته وأقام على جميع الخلق حجته ، وأنزل رحمته كتاباً معجزاً أنزل بواسطة خير ملك على خير نبي لخير أمة أخرجت للناس، أمر عباده أن يتلوه حق تلاوته ويتدبروا حقائق عبارته ويتفهموا عجائبه ويتبينوا غرائبه التي لا تزال تسطع بالحق جيلا بعد جيل تصدق ما جاء في محكم التنزيل أنه ليس من كلام البشر ولكنه تنزيل من حكيم حميد عزيز

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، خير من نطق بالضاد ، وأفصح العرب ، ملك البيان ، محمد ابن عبد الله الذي علمه ربه ولم يخط بقلم وعلى آله المنتجبين الفصحاء الأطهار وصحبه المنتخبين البلغاء الأخيار وبعد .

فإن القرآن الكريم تميز بالدقة في اختيار الكلمة، والدقة في اختيار موضعها، فإنه إذا قدم كلمة على أخرى فلحكمة لغوية و أسرار بلاغية تليق بالسياق العام ،أعظم أنيس وخير جليس، لا يُملّ حديثه ولا تنفد عجائبه واسراره ، وترداده يزداد فيه تجمّلاً، وإنّ من أسرار القرآن العظيم وروعة بيانه أنّك كلّما أبحرت فيه ازددت تعمّقاً وشوقاً وكلما نهلت من فيضه ومعينه الصّافي ازددت به تعلّقاً وتشبثاً.

وهذا كتابه الله – تعالى – الذي شغل العالم منذ نزوله إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو مصباح الظّلام ومنهل البيان الذي وقف فحول العرب وفصحاؤهم أمامه عاجزين مشدوهين، وهم الذين طالما خاضوا معارك البلاغة والبيان، وتباروا في فنون القول وأسراره حتى أسروا القلوب والأذهان بسحر بيانهم وتبيينهم، وهاهم أولاء يقفون أمام البيان الأعظم مأسورين مشدوهين عاجزين!!

وقد جاء أسلوب القرآن الكريم في الغاية العظمى من البلاغة والفصاحة، وخرج عن جميع وجوه النظم المتعارف عليها في كلام العرب فتوافر العلماء على البحث في أسراره واستخراج دره، فصنّف فيه الزملكاني والفراء وأبو عبيده وابن قتيبة والإمام الرازي وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم، ( والواقع أن المصنفات الأولى في الإعجاز على اختلاف مذاهب أصحابها، جاءت أشبه بمباحث بلاغية مما قدروا أن إعجاز القرآن يُعرف بها، وإن استوعبت أقوال المتكلمين في وجوه الإعجاز، فرسائل الخطّابي السنى، والرّمّاني المعتزلي، والباقلّاني الأشعري، تأخذ مكانها في المكتبة البلاغيّة وبعد أن استقلّت البلاغة بالتأليف والتصنيف، وُجّهت إلى خدمة الإعجاز البلاغي.. الجرجاني يضع كتابه في النظم والبلاغة ويقدّمه باسم ( دلائل الإعجاز )، وأبو هلال العسكريّ يضع علم الفصاحة والبلاغة تالياً لعلم التّوحيد، والزمخشري وهو من المعتزلة يقرّر أنه لابدّ من علم البيان والمعاني لإدراك معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم..

وجرى المتأخّرون على أن يجمعوا في الإعجاز كل ما قاله السّلف من وجوه، كصنيع الشيخ محمد عبده في الفصل الذي كتبه في تفسيره ( تفسير الذكر الحكيم ) عن الإعجاز ([1])

مشكلة البحث :

تكمن مشكلة البحث في وجود دقائق نفيسة ولطائف بليغة لأسلوب التقديم والتأخير الذي عدّه ابن جني إحدى صور شجاعته العربية وقوّة لغتها... ويتنوّع هذا الأسلوب وتتغير دلالته تبعاً لتغيّر السياق وحاجة المقام، فما كان لكلمة أن تتقدم من مكانها دون غاية معنوية وهدف دلالي تريد أن تبثّه في الجملة... والقرآن الكريم كلام الله المعجز وبيانه المحكم يشتمل على هذه الأساليب التي ينبغي الوقوف مع أسرارها ودلائلها.

هدف البحث ومنهجه :

يهدف البحث إلى الوقوف على أساليب التقديم والتأخير ومعرفة لطائفه، فهو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لايزال يفتر لك عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفه([2])، ثم يقول : إلا أنّ الشأن في أنّه ينبغي أن يعرف في كل شيء قدّم فيه موضع من الكلام مثل هذا المعنى ويفسّر وجه العناية فيه هذا التفسير .([3]) وهذا البحث هو خاص بالتقديم اللفظي وليس التقديم المعنوي

وقد تمثل منهج البحث في الخطوات الآتية :

- أولاً : التّقديم لمراعاة السّياق وحسن انتظام الكلام.
- ثانياً : التقديم حسب القِدم والزمنية
- ثالثاً : التقديم العلة والسببية
- رابعاً : تقديم التنقل من الاقرب الى الابعد وبالعكس
- خامساً: تقديم لدواع أخرى

الخاتمة : وتتضمّن أهم نتائج البحث وبعض التّوصيات

- ثبت المصادر والمراجع.

## المبحث الأول

## التقديم والتأخير

يعد موضوع التقديم والتأخير من أهم موضوعات علم المعاني , فهو الذي يبحث في بناء الجمل , وصياغة عباراتها , ويتأمل تراكيبها , حتى يبرز ما يكمن وراءها من أسرار ومزايا بلاغية , ومن المسلم به أن معنى الجملة ليس هو مجموع معاني المفردات التي تتألف منها , بل هو حصيلة تركيب هذه المفردات في نمط معين , حسب قواعد لغوية محددة, فنسق الجملة وكيفية ترتيب الأجزاء فيها , هو مما ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار, ذلك لأن المعنى إنما يتولد فقط من ترتيب الألفاظ والعبارات , والمعنى أن لكل تركيب نظمه وترتيبه , ومواقع ألفاظه . والترابط في الكلام ووضع كل كلمة في مكانها المناسب من الجملة , وهذا فن دقيق وهومن أهم مقومات البلاغة والبيان , فكثير من الكلمات لو قدمتها أو أخرتها عن محلها لتغير عليك المعنى الذي تريد , أو ضاع جماله ورونقه , لأن تقديم اللفظ أو تحويله من مكان إلى آخر , يغير المعنى . وتغيير المعنى بتقديم اللفظ , وتحويله عن مكانه , لا يأتي عبطاً أو عبثا , وإنما يتم وفق أسس وضوابط , وأغراض يقصد إليها المتكلم , فيقدم ما يريد التنبيه عليه والالتفات إليه , ويؤخر ما لم يرد فيه ذلك . وقد تميز القرآن الكريم بالدقة في اختيار الكلمة, وفي اختيار موضعها , فإذا قدم كلمة على أخرى فلحكمة لغوية وأسرارٍ بلاغية تليق بالسياق العام . إذن فلكل كلمة في موضعها من الجملة معنى, متقدمة كانت أو متأخرة .. وإن مبحث التقديم والتأخير من أكثر المباحث البلاغية , التي نالت اهتمام علماء المعاني , وهذا الاهتمام الذي تجلى في رصدهم لأسرار التقديم والتأخير المتعددة , وما تؤديه تلك الأسرار من قيمة دلالية , أو تأثيرية ([4]).

وهو باب من أبواب البلاغة فمن المسلَم به في اساسيات اللغة العربية أن لكلّ عنصر من عناصر الجملة في اللّسان العربيّ موقع في ترتيب بناء الجملة، وأن الكلام يتألف من كلمات وأجزاء ، والجملة العربية تتكون من ركنين اساسيين وهما: المسند والمسند إليه ، ولا يستقيم الكلام إلا بذكرهما واذا حذف أحدهما فإن اللغويين يلجؤون للتقدير ليستقيم الكلام. ونحن هنا بصدد دارسة أسلوب من اساليب اللغة العربية وهو فن التقديم والتأخير وهذا الغرض مرتبط بدراسة علم المعاني وله أسرار بلاغية جمة فقد تحدث العلماء عن هذا الفن وعن اسراره ومزاياه " هو باب كثير الفوائد جم المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية .لا يزال يفتر لك عن بديعه ويفضي بك إلى لطيفه ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قُدِّم فيه شيء، وحُوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان".([5]) وتحدث عن هذا الفن عبد القاهر في دلائل الاعجاز و أفرد له باباً وهو باب التقديم والتأخير يقول أنه " من الأبواب التي تظهر بها مزية الكلام ويعلو بها أسلوب على أسلوب ويبدو بها إعجاز القرآن"([6]). أما الزركشى: فقال عنه " هو أحد أساليب البلاغة، فانهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق"([7]) ويقول الدكتور

أحمد مطلوب وهذا الباب يقصد التقديم والتأخير " تتبارى فيه الأساليب وتظهر المواهب والقدرات، وهو دلالة على التمكن في الفصاحة وحسن التصرف في الكلام ووضعه الوضع الذى يقتضيه المعنى"([8]).

ويمثل فن التقديم في بناء الجملة ركيزة أساسية في بلاغتها وتحقيق مراداها , وإصابة غرض المتكلم ، وذلك لتحقيق التواصل بينه وبين المخاطب , لأنه يقوم على إعادة ترتيب مكونات الجملة , فُيقدم ما حقه التأخير في عرف اللغة واصطلاح النحاة , وُيؤخر ما حقه التقديم , وهذا لا يكون إلا لتحقيق أغراض واسرار بلاغية وأسلوبية .[9]

لذلك كان لفن التقديم والتأخير لطائف ومحاسن و يشتمل على أسرار دقيقة، "ولما كانت الألفاظ قوالب المعاني وكان بعضها أكثر دلالة على المعنى من غيره حسن تقديم ما حقهُ التأخير من ركني الجملة؛ لأن تقديمه يرمي إلي مطابقة الكلام لمقتضى الحال"[10]، و يعد هذا هو جوهر البلاغة وهو مطابقتها لمقتضى الحال و"المفهوم الفعلي من حيث الدلالة اللغوية للتقديم والتأخير أنه إذا بدأنا بكلمة سابقة على غيرها فقد قدمناها في الكلام"[11]. وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن- كما في غيره - الذِّروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير, بحيث تستقر في مكانها المناسب , فكان هذا المبحث لبيان بعض الأسرار والأغراض البلاغية للتقديم والتأخير في النظم لمشاهد الآيات الكونية القرآني الكريم[12].

## المطلب الأول :

### التقديم والتأخير في اللغة والاصطلاح :

أولاً لغةً

– التقديم: عند البحث عن معني التقديم والتأخير في اللغة والاصطلاح , نجد أن مادة ( قدم ) تؤدي معاني مختلفة , ذكرها علماء العربية في المعاجم . جاء مفهوم التقديم في لسان العرب، على معاني عديدة، منها ما ورد في أسماء الله تعالى المُقدّمُ : هو الذي يقدم الأشياء ويضعها في مواضعها، فمن استحق التقديم قدَّمه.

أما :التقديم والتأخيرفي الاصطلاح ، فنجده مرتبطًا بمعناه اللغوي السابق، بالإضافة إلى النظر إلى الأصل في التركيب اللغوي، من حيث كونه جملة اسمية مكونة على الترتيب من مبتدأ وخبر، أو جملة فعلية مكونة على الترتيب من فعل وفاعل ومفعول به، أو ما في محله إن كان الفعل متعديًا، وعليه فإن أي تغيير في هذا الترتيب يُعدُّ تقديمًا وتأخيرًا في أصل التركيب وعدولًا عنه .

لذلك نجد الدكتور أحمد مطلوب يعرف التقديم والتأخير بأنه "تغيير لبنية التراكيب الأساسية، أو هو عدول عن الأصل يكسبها حرية ورقة، ولكن هذه الحرية غير مطلقة ([13])

وكذلك يمكن أن نعرف (التقديم) بأنه "تقديم جزء من الكلام بمقتضى البلاغة، حقُّه أن يتأخر في الترتيب بمقتضى الأصل العام في القواعد([14])"، وفي المقابل فإن (التأخير) هو تأخير جزء من الكلام حقُّه أن يتقدم.

## *أسباب التقديم والتأخير

الأول ونعني به التقديم فأسبابه كثيرة

أحدها: أن يكون أصله التقديم ولا مقتضى للعدول عنه كتقديم الفاعل على المفعول والمبتدأ على الخبر وصاحب الحال عليها نحو جاء زيد راكبا وغيرها من الاسباب التي تحدث عنها علماء العربية بسهاب واطناب ولا يسع المجال لذكرها هنا.[15]

ويكون لأحوال التقديم والتأخير أنواع وأساليب مختلفة ومتنوعة ، ولقد تحدث علماء العربية والبلاغة عن تقسيم التقديم والتأخير وقد قسمها اغلب العلماء الى قسمين هما:

الأول: تقديم اللفظ على عامله نحو: (خالداً أعطيتُ) و: (بمحمدٍ اقتديتُ) .ومثاله في القرآن الكريم نحو قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) وقوله تعالى (وربك فكبّر) وهنا تم تقديم الذي رتبته التأخير، كالمفعول، وتأخير الذي رتبته التقديم كالفاعل، نقل كل واحد منهما عن رتبته وحقه،

الثاني: تقديم الألفاظ بعضها على بعض في غير العامل وذلك نحو قوله تعالى: {وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله} [البقرة: 173] ، وقوله: {وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ} [المائدة: 3] ومثل: (أَعرتُ خالداً كتابي) و: (أعرت كتابي خالداً) [16].

## المطلب الثاني:

## *التقديم والتأخير في القرآن الكريم

ويتميز القرآن الكريم بالدقة في اختيار الكلمة، والدقة في اختيار موضعها، فإنه إذا قدم كلمة على أخرى فلحكمة لغوية و أسرار بلاغية تليق بالسياق العام.

و من مواضع التقديم والتأخير في القرآن الكريم وقد ورد منه في القرآن الكريم أنواع حصرها الزركشي في ثلاثة: النوع الأول: ما قّدم والمعنى عليه.

أي أن اللفظ والمعنى مقصود تقدمهما , ومقتضيات هذا النوع وأسبابه كثيرة , ذكر منها الزركشي خمسةً وعشرين ([17]). النوع الثاني: مما قدّم والنية به التأخير.. أي لفظه مقدم، ومعناه مؤخر([18]) ، وهذا النوعان يكونان في آية واحدة ، أو سياق واحد.

النوع الثالث: ما قدَّم في آية وأخَّر في أخرى..[19] وهذا هو محور الدراسة من حيث التقديم اللفظي

ويحفل القرآن الكريم بأسرار التقديم والتأخير ، فهو يعد باباً عظيماً من أبواب علم البلاغة ومبحثاً مهماً من مباحث علم المعاني يحتاج إلى تأمل وتدبر في أغراضه والوقوف على أسراره وتتبع غاياته.

وللقرآن الكريم معاني أولية، وهي معاني كلماته وجمله، وهناك معان ثانية، وهذه المعاني تؤخذ من نظمه البديع؛ فتقديم كلمة في آية، وتأخيرها في أخرى، يعطي معنى ثانياً غير المعني الذي تعطيه الألفاظ. ولا يتقدم اللفظ في القرآن ذكراً، أو يتأخر إلا لموجب وغرض، علمه من علم، وجهله من جهل وفي هذا البحث إن شاء الله سوف نقف على هذه الجزئيات لماذا تقدم في آية وتأخر في أخرى وهو ما يسمى ب

## تقديم اللفظ وتأخيره على غير العامل.

إن تقديم الألفاظ بعضها على بعض له أسباب عديدة يقتضيها المقام وسياق القول، يجمعها قولهم: إن التقديم إنما يكون للعناية والاهتمام. فما كانت به عنايتك أكبر قَدَّمتَهُ في الكلام. والعناية باللفظة لا تكون من حيث إنها لفظة معينة بل قد تكون العناية بحسب مقتضى الحال. ولذا كان عليك أن تقدم كلمة في موضع ثم تؤخرها في موضع آخر لأن مراعاة مقتضى الحال تقتضي ذاك. والقرآن أعلى مثل في ذلك فإننا نراه يقدم لفظة مرة ويؤخرها مرة أخرى على حسب المقام. فنراه مثلاً يقدم السماء على الأرض ومرة يقدم الأرض على السماء، ومرة يقدم الإنس على الجن ومرة يقدم الجن على الإنس، ومرة يقدم الضر على النفع ومرة يقدم النفع على الضر، كل ذلك بحسب ما يقتضيه فن القول وسياق التعبير.

فإذا أردت أن تبين أسباب هذا التقديم أو ذاك فإنه لا يصح الاكتفاء بالقول إنه قدم هذه الكلمة هنا للعناية بها والاهتمام دون تبيين موطن هذه العناية وسبب هذا التقديم.

فإذا قيل لك مثلاً: لماذا قدم الله السماء على الأرض هنا؟ قلت: لأن الاهتمام بالسماء هنا أكبر.

ثم إذا قيل لك: ولماذا قدم الله الأرض على السماء في هذه الآية؟ قلت: لأن الاهتمام بالأرض هنا أكبر. فإذا قيل لك: ولماذا كان الاهتمام بالسماء هناك أكبر وكان الاهتمام بالأرض هنا أكبر؟

وجب عليك أن تبين سبب ذلك وبيان الاختلاف بين الموطنين، بحيث تُبين أنه لا يصح أو لا يَحْسُنُ تقديم الأرض على السماء فيما قدمت فيه السماء، أو تقديمُ السماء على الأرض فيما قدمت الأرض بياناً شافياً. وكذلك بقية المواطن الأخرى. أما أن تكتفي بعبارة أن هذه اللفظة قدمت للعناية والاهتمام بها فهذا وجه من وجوه الإبهام. والاكتفاءُ بها يضيع معرفة التمايز بين الأساليب فلا تعرف الأسلوب العالي الرفيع من الأسلوب المهلهل السخيف، إذ كل واحد يقول لك: إن عنايتي بهذه اللفظة هنا أكبر دون البصر بما يستحقه المقام وما يقتضيه السياق[20].

ويقول الدكتور فاضل السامرائي إن فن التقديم والتأخير فن رفيع يعرفه أهل البصر بالتعبير والذين أُوتوا حظاً من معرفة مواقع الكلام وليس ادعاء يُدَّعى أو كلمة تقال.

وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن – كما في غيره – الذروة في وضع الكلمات الوضعَ الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب.

وهذا التوافق في القرآن الكريم ليس محصورا بين سوره فقط , أو بين آياته , بل إن التوافق كذلك موجود بين كل كلمة والتي تليها في نفس الآية , وكذلك بين مقدمة الآية وختامها , حيث يرد الختام على هيئة تعقيب مناسب يتلاءم ويتناسب مع المعاني التي تضمنتها الآية , وهو ما يسميه البلاغيون بالتذييل . ولم يكتف القرآن الكريم في وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي ودرت فيه بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله. فترى التعبير متسقاً متناسقاً مع غيره من التعبيرات كأنه لوحة فنية واحدة مكتملة متكاملة[21]. فالقرآن الكريم دقيق في وضع الألفاظ ورصفها بجنب بعض بدقة عجيبة فقد تكون له خطوط عامة في التقديم والتأخير، وقد تكون هناك مواطن تقتضي تقديم هذه اللفظة أو تلك، وكل ذلك مراعى فيه سياق الكلام والاتساق العام في التعبير على أكمل وجه وأبهى صورة. وسنوضح هذا القول في بعض فنون وأسرار التقديم والتأخير في آيات المشاهد الكونية[22].

إن القرآن – كما ذكرنا – يقدم الألفاظ ويؤخرها ليس اعتباطاً لكن حسبما يقتضيه المقام فقد يكون سياق الكلام – مثلاً – متدرجاً حسب القدم والأولية في الوجود، فيرتب ذكر الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه وهكذا وذلك نحو قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56] فخلق الجن قبل خلق الإنس بدليل قوله تعالى: {والجآن خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم} [الحجر: 27] فذكر الجن أولاً ثم ذكر الإنس بعدهم.

ومن ذلك تقديم عاد على ثمود قال تعالى: {وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ} [العنكبوت: 38] فإن عاداً أسبق من ثمود."([23])

إذاً تقديم جزء من الكلام أو تأخيره فهذا لا يرد اعتباطا في نظم الكلام وتأليفه، بل يكون عملا مقصودا يقتضيه غرض بلاغي أو داع من دواعيها. وأنه مما يدعو بلاغياً إلى تقديم جزء من الكلام هو ذاته ما يدعو بلاغياً إلى تأخير الجزء الآخر. وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا يكون هناك مبرر لاختصاص كل من المسند إليه والمسند بدواع خاصة عند تقديم أحدهما أو تأخيره عن الآخر، لأنه إذا تقدم أحد ركني الجملة تأخر الآخر، فهما متلازمان[24].

وفي ضوء ما تقدم سنذكر أهم الدواعي والأغراض البلاغية التي توجب التقديم او التأخير في الآيات المشاهد الكونية وأسرارها البلاغية ، وبيان ما اشتملت عليه من فنون بلاغية. و

السماء في اللغة: هي كل ما علاك؛ فكل ما علا الأرض من سحب وطبقات هواء وكواكب تسبح في الفضاء، وما وراء ذلك من القبة المحيطة الكبرى هو للأرض سماء، وكل هذه متقنة الصنع محكمة الوضع متلاحمة

الأجزاء، مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً مقدراً بالمسافات المدققة التي لا يكون معها تصادم ولا ارتخاء. ووضعها على هذه الصورة المنظمة المحكمة هو البناء، وعليها كلها ينبغي أن يحمل لفظ الآية المتقدمة. وقد جاء لفظ السماء في القرآن مراداً به القبة المحيطة في مثل: قوله تَعَالَىٰ:﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ الملك: ٥ و قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ ﴾ الصافات: ٦ وجاء مراداً به السحاب في مثل {وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ} [الزخرف: 11]. فإن المطر ينزل من السحاب لقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ} [النور: 43]. وجاء مراداً به طبقات الجو في مثل: {وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ} [النور: 43]. والبرد يتكون في طبقات الجو.

والمتتبع لمواقع لفظة السماء من الكتاب العزيز يتحقق هذا.

الأرض: هي هذه الكرة التي نعيش عليها.

والناظر في السّياق القرآني يجد هذا الأسلوب هو "مادة الإعجاز في كلام العرب كلّه، ليس من ذلك شيء إلّا وهو معجز، وليس من هذا شيء يمكن أن يكون معجزاً، وهو الذي قطع العرب دون المعارضة والسياق القرآني يحمل الكثير من الخصائص التركيبية التي تسمو على لغة البشر قوة وصفاء ونقاء، وكان سياق التقديم والتأخير واحداً من فرائد القرآن وخصائصه، سيق لإبراز مقام الموقف بروحه وعمقه، وسوف نقف بإذن الله وتوفيقه مع بعض هذه السياقات:

المطلب الثالث:

التقديم والتأخير في مشاهد الآيات الكونية

أوّلاً: التّقديم لمراعاة السّياق وحسن انتظام الكلام:

ومِنْ الشواهدِ القرآنِية في هذا الموضوع: ( مشاهد السماء والأرض وتقديم احدهما على الاخر)

عندما تقدّم السماء على الأرض فهذا هو الأصل الوارد في سياقات القرآن وهو لحكمة يقتضيها السياق ويتطلّبها المقام كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨ ﴾ **فاطر: ٣٨** هنا تقدم لفظ السماء على الارض وهو الأصل وكذلك لان مقام الكلام عن علم الغيب فناسب تقيد السماء على الأرض فتقدم ذكر السماوات لأن معلوماتها أكثر فكان تقديمها أدل على صفة العالمية، فتقديم السماوات منتظم بقوله عالم الغيب، ثم جاءت آية اخرى في نفس السورة ولكن وردت الأرض مقدمة على السماء كما في قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ۝٤٠ ﴾ **فاطر: ٤٠**

فقدم الأرض لأنه في سياق تعجيز الشركاء عن الخلق والمشاركة وأمر الأرض في ذلك أيسر من السماء بكثير فبدأ بالأرض مبالغة في بيان عجزهم، لأن من عجز عن أيسر الأمرين كان عن أعظمهما أعجز،([25]) ثم قال سبحانه ﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾ **فاطر: ١٤**

فقدم السماوات تنبيها على عظم قدرته سبحانه لأن خلقها أعظم من خلق الأرض ومن قدر على إمساك الأعظم كان على الأصغر أقدر.

فالكلام يترتب بحسب الأهمية المعنوية عند المتكلم في الأصل وفي العدول عن الأصل، واللغة تقوم على الأهمية المعنوية، والإنسان يتحدث تحت رعاية الأهمية المعنوية وعلامات أمن اللبس([26])والذي ينظر في سياق الآيات السباقة يجد أن السموات مقدّمة على الأرض وهذا هو الكثير المعتاد في آيات القرآن الكريم، وقد تقدّم الأرض على السماء خلافاً لهذا الأصل تبعاً لاقتضاء السياق كما في قوله تعالى ﴿ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦١﴾ ﴾ **يونس: ١٦**

قال الزمخشري: فإن قلت لم قدّمت الأرض على السماء بخلاف قوله تعالى في سورة سبأ في قولهتَعَالَىٰ:﴿ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾ ﴾ **(سبأ: ٣ )** قلت: حق السماء أن تقدّم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله ( لا يعزب عنه ) لاءم ذلك أن قدّم الأرض على السماء على أن العطف بالواو حكمه حكم التثنية([27])فإن قيل قد جاء تقديم الأرض على السماء في الذكر في مواضع كثيرة من القرآن قلنا: إذا جاءت مقدمة في الذكر فلا بد لذلك من سبب اقتضاه وإن خفي ذلك السبب وقد يستنبطه بعض الباحثين دون بعض([28])فالكلام في سورة يونس عن أهل الأرض فناسب أن يقدم الأرض على السماء في قوله تعالى (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء) أما في سورة سبأ فالكلام عن الساعة والساعة يأتي أمرها من السماء وتبدأ بأهل السماء (فصعق من في السموات والأرض) و(ففزع من في السموات ومن في الأرض) ولذلك قدّم السماء على الأرض في قوله تعالى (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض).واستخدمت السماء في سورة يونس لأن السياق في الإستغراق فجاء بأوسع حالة وهي السماء لأنها أوسع بكثير من السموات في بعض الأحيان. فالسماء واحدة وهي تعني السموات أو كل ما علا وفي سورة سبأ استخدم السموات حسب ما يقتضيه السياق."([29])" وقدم ذكر الأرض لأن الكلام في سورة يونس مع أهلها وأخره في آية سبأ (34: 3) وقدم السماء في سبأ لأنها في سياق ثنائه تعالى على نفسه ووصفه بإحاطة علمه فناسب تقديم السماء لأنها أعظم، فإن فيها من الشموس وعوالمها ما يبعد بعضه عن بعض مسافة ألوف الألوف من السنين التي تقدر أبعادها بسرعة النور،([30]) فتأمل كيف وقع هذا الترتيب في ( سبأ ) في ضمن قول الكفار:? لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ?، كيف قدم السموات هنا؛ لأن الساعة

إنما تأتي من قبلها، وهي غيب فيها، ومن جهتها تبتدئ وتنشأ. وأما تقديم الأرض على السماء، في سورة ( يونس ) فإنه لما كان السياق سياق تحذير وتهديد للبشر، وإعلامهم أنه سبحانه عالم بأعمالهم دقيقها وجليلها، وأنه لا يغيب عنه منها شيء، اقتضى ذلك ذكر محلهم، وهو الأرض قبل ذكر السماء ".([31]) ويؤكد ابن الاثير على أن تقديم (السماء) على (الأرض) هو الأصل لأنه تقديم بالفضل والشرف، لكن العدول عن ذلك هنا كان مقصودا لمناسبة سياق الآية كما وضح. كما أنه في ختام تحليله يؤكد على تفرد النص القرآني بهذا التوظيف، وخفاء أسراره على الكثيرين، فقد يصل الفهم الذوقي عالم، ويخفق آخرون.([32])

ومن الشواهد على تقديم الأرض على السماء في مشاهد الآيات الكونية في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ **ال بقرة:٢٢** بدأ بذكر الأرض لأنها أقرب إلى النظر والتأمل وفيها المستقر والمعاش والفراش وقد وردت هذه الآية في سياق توجيه النظر إلى وجوب عبادة الله وحده وشكره على نعمه، وأفراده بالعبادة ولأنه المنعم المتفضل على جميع الخلائق بخيرات الأرض والسماء بدأ بالأقرب إليهم وهي الارض وهذا من باب الاستدلال او التنقل من الاقرب الى الابعد . وفي قوله تعالى﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ ﴾ **آل عمران: ٥**

**الشاهد:** قدم الأرض على السماء ، لقصد الترقي فهذا تقديم بالتنقل من الأقرب إلى الأبعد."(33) ومن مواضع تقديم الأرض على السماء ما جاء في قوله تعالى ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ **إبراهيم: ٨٣** قدم الأرض ، لأن الآية في سياق الوعد والوعيد ، وإنما هو لأهل الأرض.(34) فإن قيل: قد جاء تقديم الأرض على السماء في الذكر في مواضع كثيرة من القرآن. قلنا: إذا جاءت مقدمة في الذكر فلا بد لتقديمها من سبب اقتضاه،وإن خفي ذلك السبب، وقد يستنبطه بعض العلماء دون بعض([35])ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ **الملك: ٧١** وقوله تعالى:﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ **الأنعام:٥٦** فقدّم خسف الأرض على إرسال الحاصب في آية الملك وأخّر العذاب عما يأتي من السماء في آية الأنعام. وذلك أن آية الملك تقدّمها قوله تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15) الملك) فكأن أنسب شيء في الموعظة تذكيره بخسفها من تحتهم. أما آية الأنعام فتقدمها قوله تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (61) الأنعام) فصرف هذا الخطاب تفكر

النفس في عين الجهة التي ذكر منها القهر، وكان أنسب شيء ذكر منها القهر وكان أنسب شيء ذكر التخويف من تلك الجهة بخلاف آية الملك. ومما زاد حسناً قوله تعالى (ويرسل عليكم حفظة) والحفظة: هم الملائكة، والملائكة مسكنهم في السماء، وربنا يرسلهم من فوق فناسب تقديم هذه الجهة على غيرها[36]. وفي الآيةِ الكريمةِ تنبيهٌ على أنَّ السلامَةَ في البَرِّ نعمةٌ عظيمةٌ لا تقلُّ أهميةً عنْ السلامةِ في البحرِ ، وقدَّمَ التعبيرُ القرآنيُّ التهديدَ بفقدانِها لطبيعةِ تواجدِ الإنسانِ في البرِّ ، ولو حدثَ خسفٌ بالناسِ لهلكوا .. وأنواعُ العذابِ والهلاكِ في البرِّ متعددةٌ فمنها الخسفُ والزلازلُ والبراكينُ والطوفانُ والعواصفُ وما إلى ذلكَ ، وهذا على خلافِ الإهلاكِ في البحرِ المقتصرِ على نوعٍ واحدٍ ؛ هوَ الإغراقُ ، فكانَ ذلكَ مدعاةً إلى تقديمِ التهديدِ بعذابِ البرِّ على عذابِ البحرِ . وفي ذكرِ (البرِّ والبحرِ) طباقٌ يتولَّدُ عنهُ شمولُ أصنافِ العذابِ جميعِها. فضلاً عن تَحَقُّقِ الجناسِ غيرِ التامِّ بينَ اللفظتينِ[37]..

وقدّمت الأرض في خمس سور:آل عمران الآية 5 ويونس الآية 61 وإبراهيم الآية 38 وطه الآية 4 والعنكبوت الآية [24]22. ولم يذكر الكرماني الموضع السادس الوارد في آية 40 من سورة فاطر

ثانياً: ( تقديم السبق أو الزمن ) مشاهد تقديم وتأخير ( الليل والنهار والشمس والقمر )

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾فصلت: ٧٣

أولاً: أن مناسبة هذه الآية الكريمة لما قبلها : أن الله تعالى ، لما ذكر في الآية المتقدمة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إليه، شرع – سبحانه – بذكر بعض آياته البديعة الدالة على كمال قدرته، وقوة تصرفه، التي تدل على وحدانيته وتوحيد تنبيها على أن الدعوة إليه – جل جلاله – هي عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذاته، وصفاته – جل وعلا فتأمل عظمة الخالق في خلقه، ثم تأمل بعد ذلك هذا الترتيب البديع، بين الليل والنهار، والشمس والقمر، ترَ إعجازًا آخر من إعجاز القرآن البياني. فقد قدم – سبحانه وتعالى – ذكر الليل على ذكر النهار – كما قال الرازي والألوسي– تنبيها على تقدمه، مع كون الظلمة عدمًا، وكون النور وجودًا، والعدم سابق على الوجود ، أما الشمس فناسب ذكرها بعد النهار لأنها آيته، وسبب تنويره ولأنها أصل لنور القمر، بناء على ما تقرَّر، من أنه مستفاد من ضياء الشمس. وأما ضياؤها فالمشهور أنه غير طاريء عليها من جرم آخر. ولهذا قدمت عليه، وكان من حقها أن تتأخر، قياسا على تقديم الليل على النهار كما في قوله تعالى :(وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمسَ سِرَاجًا) نوح 16 وجعلوا من ذلك تقديم الليل على النهار والظلمات على النور وقال: {يُقَلِّبُ الله الليل والنهار} [النور: 44] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. ومثل تقديم الليل على النهار تقديم الظلمات على النور كما ذكرت. قال تعالى: {وَجَعَلَ الظلمات والنور} [الأنعام: 1] وذلك لأن الظلمة قبل النور لما مر في الليل([38]).

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ٣٣

فقدم الليل لأنه أسبق من النهار وذلك لأنه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة، وقدم الشمس على القمر لأنها قبله في الوجود

## ثالثاً: (تقديم العلة والسببية) مشاهد الرياح *

في (قوله وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49) الفرقان: ٤٨ – ٤٩

وفي هذه الآية "الاستدلال بدقيق صنع الله في تكوين الرياح، فالعامة يعتبرون بما هو داخل تحت مشاهدتهم من ذلك، والخاصة يدركون كيفية حدوث الرياح وهبوبها واختلافها"[39]،« وأنزلنا من السماء ماء » الى قوله « وأناسي كثيرا » وجاءت هذه الآية في الاستدلال على الانفراد بالخلق وامتنان بتكوين الرياح ولأسحبه والمطر. نجد في هذه الآية أسرار عجيبة إذا تدبرناها وتأملناها جيداً ألا ترى كيف قدم حياة الأرض وإسقاء الأنعام على إسقاء الناس؟ على الرغم أن الناس أشرف محلاً وأعلى مكاناً. لكن هذا التقديم له اسراره واسبابه وسبب ذلك هو أن حياة الأرض سبب لحياة الأنعام والناس. ولما كانت الأنعام أيضاً من أسباب التعيش والحياة للناس قدمها على الناس في الذكر، ولأن حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم، فنجد هنا قدم سقي ما هو سبب نمائهم ومعاشهم على سقيهم سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم. فهذه نكت القرآن العجيبة ورموز أسراره اللطيفة التي إذا مر الإنسان عليها من غير أن يتدبرها، ويعطيها أفضل تأمل وتفكر لا يقع على خباياها، ولا يظفر بغرائبها([40]).

وذلك "لأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أرضهم ومواشيهم، لم يعدموا سقياهم." هذا من اسرار هذا التقديم بالعلة والسببية ".[41] ويرى ابن عاشور في "تقديم ذكر الأنعام على الأناسي اقتضاه نسج الكلام على طريقة الأحكام في تعقيبه بقوله: ولقد صرفناه بينهم ليذكروا، ولو قدم ذكر أناسي لتفكك النظم. ولم يقدم ذكر الناس في قوله تعالى: متاعا لكم ولأنعامكم في سورة النازعات [33] لانتفاء الداعي للتقديم فجاء على أصل الترتيب"[42].

"وله في القرآن نظائر كثيرة، ألا ترى إلى قوله تعالى: وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون. والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم فقوله: والقمر قدرناه منازل ليس تقديم المفعول فيه على الفعل من باب الاختصاص، وإنما هو من باب مراعاة نظم الكلام؛ فإنه قال: الليل نسلخ منه النهار ، ثم قال: والشمس تجري، فاقتضى حسن النظم أن يقول: والقمر قدرناه ليكون الجميع على نسق واحد في النظم، ولو قال وقدرنا القمر منازل لما كان بتلك الصورة في الحسن، وعليه ورد قوله تعالى: فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر وإنما قدم المفعول لمكان حسن النظم السجعي"([43]).

وقد تكون هناك أسباباً أخر وقد يكون سر التقديم كما ذكرنا سابقاً مراعى فيه سياق الكلام , والاتساق العام في التعبير على أكمل وجه , وأبهى صورة. فمن ذلك قوله تعالى﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا

فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ ١٣ وقوله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾( نوح: ٩١ – ٠٢ ) فقدم الفجاج على السبل في الآية الأولى وأخرها عنها في آية نوح وذلك أن الفجّ في الأصل هو الطريق في الجبل أو بين الجبلين، فلما تقدم في آية الأنبياء ذكر الرواسي وهي الجبال قدم الفجاج لذلك بخلاف آية نوح فإنه لم يرد فيها ذكر للجبال فأخرها. فوضع كل لفظة في الموضع الذي تقتضيه."([44]) وقال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (السجدة: ٧٢)فقدم الأنعام على الناس. وقال في آية أخرى قال تعالى:﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ عبس: ١٣ – ٢٣ فقدم الناس على الأنعام وذلك لأنه لما تقدم ذكر الزرع في آية السجدة ناسب تقديم الأنعام بخلاف آية عبس فإنها في طعام الإنسان قال تعالى (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (32) عبس) ألا ترى كيف ذكر طعام الإنسان من الحب والفواكه أولاً ثم ذكر طعام الأنعام بعده وهو الأبّ أي التبن، فناسب تقديم الإنسان على الأنعام ههنا كما ناسب تقديم الأنعام على الناس ثمّ. فسبحان الله رب العالمين."([45]) ومن تقديم المسند إليه لتقوية الحكم المنفي {لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر} فإنه أبلغ من أن يقول (لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر) وأكد في إفادة أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها فإنَّ قولك «أنت لا تكذب» بتقديم المسند إليه أبلغ من قولك «لا تكذب» فإنه أشدُّ لنفي الكذب من العبارة الثانية فتدبر أسرار القرآن.

"وفى تقديم الليل على النهار ، إشارة إلى هذا الظلام الذي كان منعقدا فى أفق الحياة الإنسانية حين كانت ثمود تتحرك بطغيانها على الأرض ، فلما دمدم الله عليهم الأرض ، ورمى في أحشائها بهذا الظلام . عاد إلى الحياة صفاؤها ، وطلع نهارها!!"([46]) أقسم سبحانه في سورة « الليل » ، بالليل إذا يغشى ، وبالنهار إذا تجلى . وبدأ بالقسم بالليل ، ثم أعقبه بالقسم بالنهار ..

وهنا يقسم الله سبحانه بالنهار أولا « والضحى » ثم بالليل ثانيا . « ولليل إذا سجى » وبهذا يتوازن الليل والنهار ، فيقدّم أحدهما في موضع ويقدم الآخر في موضع ، ولكل من التقديم والتأخير في الموضعين مناسبته .. وقد أشرنا من قبل إلى المناسبة في تقديم الليل على النهار في سورة الليل ، وسترى هنا المناسبة في تقديم النهار على الليل . قيل إن هذه السورة نزلت بعد فترة انقطع فيها الوحى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد اتخذ المشركون من ذلك مادة للسخرية من النبي ، وأن ربّه . الذي يقول إنه يوحى إليه بما يحدثهم به . قد قلاه ، أي هجره ، كرها له وبغضا!! وفى القسم بالضحى ، إشارة إلى مطلع شمس النبوة ، وأن مطلعها لا يمكن أن يقف عند حد الضحى الذي بلغته في مسيرتها ، بل لا بد أن تبلغ مداها ، وأن تتم دورتها . فالشمس في مسيرتها ، لا يمسكها شيء إذا طلعت.

وفى القسم بالليل بعد الضحى ، وإلى سجوّ هذا الليل وسكونه . إشارة أخرى إلى أن فترة انقطاع الوحى ، ليست إلا فترة هدوء ، واستجمام يجمع فيها النبي نفسه ، ويلمّ فيها خواطره ، بعد هذا النور الغامر الذي بهره ، وهز أعماق نفسه .. وإن بعد هذا الليل الهادئ الوادع نهارا ، مشرقا وضيئا .. فهكذا يجرى نظام السكون ، على ما أقامه الصانع الحكيم. ([47])

وفي قوله تعالى: (وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ) "الكلام تقديم وتأخير تقديره وسود غرابيب لأنه يقال أسود غربيب"([48])وتقديم الخبر للاهتمام وللتشويق لذكر المبتدأ حثّاً على التأمل والنظر . فالغربيب يدل على أشد من معنى أسود ، فكان مقتضى الظاهر أن يكون( غرابيب ) متأخراً عن ( سود )لأن الغالب أنهم يقولون : أسود غربيب ، كما يقولون : أبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قان ، ولا يقولون : غربيب أسود وإنما خولف ذلك للرعاية على الفواصل المبنية على الواو والياء الساكنتين ابتداءً من قوله : ( والله هو الغني الحميد) ( فاطر : 15 ) ، على أن في دعوى أن يكون غربيباً تابعاً لأسود نظراً والآية تؤيد هذا النظر ، ودعوى كون (غرابيب) صفة لمحذوف يدل عليه (سود ) تكلف واضح ، وكذلك دعوى الفراء : أن الكلام على التقديم والتأخير ، وغرض التوكيد حاصل على كل حال .([49])

رابعا: وقد تكون هناك أسباباً أخرى ؛منها كونه أدل على القدرة وأعجب ؛كقوله تَعَالَىٰ:﴿ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ ﴾ ٩٧

قال الزمخشري: قدم الجبال على الطير ؛لأن تسخيرها له وتسبيحها له أعجب, وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز ؛لأنها جماد، والطير حيوان ناطق([50])

ومن المشاهد البلاغية على تقديم الأرض على السماء في قوله تعالى ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ﴾ هود: ٤٤ في هذه الآية من أفانين البلاغة وبدائع الفصاحة ما يذهل اللب ويشده العقول وسنورد أهم الفنون التي تلفت النظر وتستهوي الموهوب ليحذو حذوها وينسج على منوالها.

من الشواهد هو تقديم أمر الأرض علة أمر السماء في قوله تعالى يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي نلاحظ قدّم أمر الأرض ببلع الماء ثم السماء ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ ، ابلعي ماءك حتى ترسو السفينة هذا هو الأول وهذا المهم حتى ينزل الركاب فبدأ بما هو مطلوب لهم فقدّم البلع حتى السفينة ترسو إذا لم تبلع الأرض فما ترسو السفينة ثم إن الماء بدأ من الأرض أصلاً قَالَ تَعَالَىٰ:﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ هود: ٤٠ ([51]) فقدَّمَ إبْلاعَ الأرضِ لأنه أهمُّ، والأصلُ تقديمُ إقلاعِ السماءِ([52]) . وهذه الآية اشتملت على فنون بلاغية جمة

وقد تعرض لها علماء البلاغة فكما أشرنا من قبل أن إعجاز القرآن الكريم علم مستقل من علوم القرآن الكريم، وهو من العلوم المهمة التي نحن في أشد الحاجة إلى تدارسها، ولاشك أن كل آية من القرآن الكريم فيها إعجاز، وهذه الآية من الآيات التي فيها من مظاهر الإعجاز ما حير ألباب فطاحل البلاغة والبيان والبديع وسائر علوم الإعجاز.

وقد ذكر القاسمي هنا فصلاً طويلاً نسبياً في هذا الموضوع، وسنمر عليه بدون تعليقات كثيرة.

يقول القاسمي: (" هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها، وحوت من بدائع الفرائد نهايتها، وقد اهتم علماء البيان بإيضاح تحب من لطائفها، ومن أوسعهم مجالاً في مضمار معارفها الإمام السكاكي فقد أطال وأطاب في كتابه المفتاح، وتلطف في البيان بألطف من نسيم الصباح، ونحن نورده بتمامه لنعطر الألباب بعرف مبتدئه ومسك ختامه،.... يقول: وإذ قد وقفت على البلاغة وعثرت على الفصاحة المعنوية واللفظية، فأنا أذكر على سبيل الأنموذج آية أكشف لك فيها عن وجوه البلاغة والفصاحتين ما عسى يسترها عنك، ثم إن ساعدك الذوق أدركت منها ما قد أدرك من تحدوا بها.

يعني: أن من تحدوا بها من جهابذة اللغة والبلاغة والبيان والأدب وهم فحول قريش، قد رأوا بما عندهم من مفاهم البلاغة ومعرفتها ما أعجزهم عن أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، فهذه المعاني أدركها هؤلاء لعلو شأوهم في الفصاحة وفي البلاغة، وعجزوا عن أن يأتوا بمثلها. يقول: وهي قوله علت كلمته: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ هود: ٤٤

، والنظر إلى هذه الآية من أربعة جهات: من جهة علم البيان. ومن جهة علم المعاني، وهما مرجعا البلاغة.

ومن جهة الفصاحة المعنوية. ومن جهة الفصاحة اللفظية

الجهة الأولى: علم البيان في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ أما النظر فيها من جهة علم البيان، وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها فنقول: إنه عز سلطانه لما أراد أن يبين معنى: أردنا أن نرد ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغاض، وأن نقضي أمر نوح، وهو إنجاز ما كنا وعدنا من إغراق قومه فقضي، وأن نسوي السفينة على الجودي فاستوت، وأبقينا الظلمة غرقى، بنى الكلام على تشبيه المراد منه بالمأمور الذي لا يتأتى منه –لكمال هيبته– العصيان، وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجازم النافذ في تكوين المقصود، تصويراً لاقتداره العظيم، وأن السماوات والأرض وهذه الأجرام العظام تابعة لإرادته، إيجاداً وعدماً، ولمشيئته تغييراً وتبديلاً كأنها عقلاء مميزون قد عرفوه حق معرفته.

لا شك أنه لا ينبغي القول بأن القرآن فيه مجاز، لأنه لا مانع على الإطلاق أن الله سبحانه وتعالى يخلق في الأرض إدراكاً بحيث تخاطب، كما في هذا الموضع: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ ما المانع أن يخاطب الله الأرض فتمتثل حقيقة هذا الأمر؟! وكذلك قوله: وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ، وقد قال تعالى: {فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا

أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت:11]، ما الذي يمنع أن يكون القول حقيقياً، وأن تكون الإجابة منهما أيضاً حقيقية.

يقول: كأنها عقلاء مميزون قد عرفوه حق معرفته، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره، والإذعان لحكمه، وتحتم بذل المجهود عليهم في تحصيل مراده، وتصور مزيد اقتداره، فعظمت مهابته في نفوسهم، وضربت سرادقها في أفنية ضمائرهم، فكما يلوح لهم إشارته، كان المشار إليه مقدماً، وكما يرد عليهم أمره كان المأمور به متمماً، لا تلقي لإشارته بغير الإمضاء والانقياد، ولا لأمره بغير الإذعان والامتثال.

ثم بنى على تشبيهه هذا نظم الكلام فقال جل وعلا: (وقيل) على سبيل المجاز المرسل عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل، إذ جعل قرينة المجاز هنا الخطاب للجماد وهو (يا أرض!) (ويا سماء!).

ثم قال كما ترى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ﴾ ! ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾! مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة للشبه المذكور، ثم استعار لمرور الماء في الأرض البلع: (ابلعي ماءك) الذي هو إعمال الجاذبة في المطعوم للشبه بينهما، وهو الذهاب إلى مقر خفي، ثم استعار الماء للغذاء استعارة بالكناية تشبيهاً له بالغذاء؛ لتقوى الأرض بالماء في الإنبات للزروع والأشجار تقوي الآكل بالطعام، وجعل قرينة الاستعارة لفظة (ابلعي) لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء.

ثم أمر على سبيل الاستعارة للشبه المقدم ذكره، وخاطب في الأمر ترشيحاً لاستعارة النداء.

ثم قال:﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز، تشبيهاً لاتصال الماء بالأرض باتصال الملك بالمالك، يعني: كأن الأرض تملك هذا الماء.

واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح، ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل فعله للشبه بينهما في عدم ما كان، ثم أمر على سبيل الاستعارة وخاطب في الأمر قائلاً: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ بمثلما تقدم في ((ٱبۡلَعِي)) ثم قال: ((وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ)) فلم يصرح بمن غاض الماء.(( وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ)): ولم يصرح أيضاً بمن قضي عليه الأمر، ومن سوى السفينة.

((وقيل بعداً)) كما لم يصرح بقائل: (يا أرض!) (ويا سماء!) في صدر الآية.

سلك في كل واحد من ذلك سبيل الكناية، بمعنى: أن تلك الأمور العظام لا تتأتى إلا من ذي قدرة قهار لا يغالب، فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره –جلت عظمته– قائلاً: (يا أرض!) (ويا سماء!).

هذه حقيقة مقررة لا تحتاج لبيانها وتوضيحها؛ لأنه لا يتصور أن يقدر على هذه الأفعال إلا الله سبحانه وتعالى، ولذلك قال: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [هود:44].

فهو قهار لا يغالب، فلا مجال لذهاب الوهم أن يكون غيره –جلت عظمته– هو قائل: (يا أرض!) (ويا سماء!) ولا غائض مثلما غاض، ولا قاضي مثل ذلك الأمر الهائل، وأن تكون تسوية السفينة وإقرارها بتسوية غيره وإقراره، ثم ختم الكلام بالتعريض بالدعاء على قوم نوح بالهلاك: ((وقيل بعداً للقوم الظالمين)) تنبيهاً لسالكي مسلكهم في

تكذيب الرسل ظلماً لأنفسهم، وإظهار لمكان السخط، ولجهة استحقاقهم إياه، وأن قيامة الطوفان وتلك الصورة الهائلة ما كانت إلا لظلمهم

الجهة الثانية: علم المعاني في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾

قال: اما النظر فيها من حيث علم المعاني ، وهو النظر في فائدة كل كلمة منها ؛ وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملتها، فذلك أنه اختير (يا) دون سائر أخواتها ؛ لكونها أكثر في الاستعمال ، وإنها دالة على بعد المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة.

المقام هنا مقام إظهار عظمة الله سبحانه وتعالى، فيناسب أن تنادى الأرض والسماء بنداء البعيد: (يا أرض!) (ويا سماء!) فمقام العظمة يستدعي وجود البعد بين مرتبة الخالق الآمر والمخلوق الذي يؤمر هنا.

قال: وأنها دالة على بعد المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة وإبداء شأن العزة والجبروت، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به، ولم يقل: يا أرضي بالإضافة؛ لإبداء التهاون.

يعني: لو أنه قال: يا أرضي ابلعي ماءك، فمثل هذه الإضافة يكون فيها تكريم للأرض وتشريف، لكنه قال: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ لإبداء التهاون، فترك هذه النسبة.

ولم يقل: يا أيتها الأرض! لقصد الاختصار، مع الاحتراز عما في (أيتها) من تكلف التنبيه غير المناسب للمقام.

واختير لفظ الأرض دون سائر أسمائها؛ لكونها أخف وأدوم، دون سائر أسمائها.

أي: كالغبراء أو المقلة من أسماء الأرض؛ لكنه استعمل لفظة الأرض.

واختير لفظ السماء بمثلما تقدم في الأرض.

أي: لم يقل: الخضراء أو المظلة أو غير ذلك من أسماء السماء، مع قصد المطابقة؛ لأنها في مقابلة الأرض.

واختير لفظ: (ابلعي) على ابتلعي؛ لكونه أقصر، ولمجيء خط التجانس بينه وبين (أقلعي).

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ﴾ لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأبي عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت، وهو الوجه في إفراد الأرض والسماء، وإنما لم يقل: ابلعي بدون المفعول؛ لئلا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهن، نظراً إلى مقام ورود الأمر الذي هو مقام عظمة وكبرياء؛ لأنه ممكن أن الأرض تبتلع الجبال وتبتلع التلال وتبتلع البحار، لكن قال: ((وقيل يا أرض ابلعي ماءك)).

ثم بيَّن المراد واختصر الكلام مع أقلعي: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ ولا يحتاج هنا إلى أن يذكر أقلعي عن الماء؛ احترازاً عن الحشو المستغنى عنه.

وهو الوجه في أن ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ﴾ فبلعت ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ فأقلعت.

واختير غيض على غيّض المشدد لكونه أقصر.

وقيل: ((وغيض الماء)) ولم يقل: وغيض ماء طوفان السماء.

وقيل: ((وقضى الأمر)) دون أن يقال: أمر نوح، وهو إنجاز ما كان الله وعد نوحاً من إهلاك قومه؛ لقصد الاقتصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك.

وقيل: ((واستوت على الجودي)) ولم يقل: سويت على الجودي؛ بمعنى: أقرت على الجودي.

وقيل: وغيض وقضي بالبناء للمفعول اعتباراً ببناء الفعل للفاعل مع السفينة، في قوله: ((وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ))، فلما جاء ذكر السفينة بني الفعل للمعلوم فناسب أن يقول هنا: ((واستوت)) ولم يقل: وسويت على الجودي جرياً على السياق الذي جرى من قبل وهو قوله: ((وهي تجري بهم في موج)) مع قصد الاختصار في اللفظ.

ثم قال: ((وقيل بعداً للقوم)) ولم يقل: ليبعد القوم؛ طلباً للتأكيد مع الاختصار، وهو نزول (بعداً) وحده منزلة ليبعدوا بعداً، مع فائدة أخرى: وهي استعمال اللام مع بعداً الدال على معنى أن البعد لصيق بهم وحق له؛ لأنه لو قال: ليبعد القوم لما ظهرت اللام.

((الظالمين)) هنا أطلق الظلم ليتناول كل نوع حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم، لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في تكذيب الرسل.

هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلمة والألفاظ، وأما من حيث النظر إلى تركيب الجمل فذاك أنه قد قدم النداء على الأمر: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ ولم يقل: ابلعي يا أرض! ولم يقل: أقلعي يا سماء! جرياً على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه؛ ليمكن الأمر الوارد عقبه في نفس المنادى.

ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ ؛ لأن الطوفان ابتدأ من الأرض، وبنزولها منزلة الأصل، والأصل بالتقديم أولى.

ثم أتبعهما قوله: ((وغيض الماء)) لاتصاله بقصة الماء، وغيض الماء النازل من السماء فغاض، ثم أتبعه ما هو مقصود من القصة وهو قوله: ((وقضي الأمر)) أي: بإنجاء نوح ومن معه في السفينة، ثم أتبعه حديث السفينة وهو قوله: ((واستوت على الجودي))، ثم ختمت القصة بما ختمت وهو التعريض الذي سبق بيانه.

هذا كله نظر في الآية من جانبي البلاغة.

الجهة الثالثة: الفصاحة المعنوية في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ أما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية: فهي كما ترى نظم للمعاني لطيف، وتأدية لها ملخصة مبينة، وفي أوجز وأقصر عبارة وأبلغها يقول عز وجل: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [هود:44]، لا تعقيد يعكر الفكرة في طلب المراد، ولا التواء يشيك الطريق إلى المراد، بل إذا جربت نفسك عند اجتماعها وجدت ألفاظها تسابق معانيها ومعانيها تسابق ألفاظها، فما من لفظة في تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك إلا ومعناها أسبق إلى قلبك.

وهذا من أعظم مظاهر الإعجاز في هذه الآية الكريمة، فكأن المعنى في مسابقة مع اللفظ حتى كاد المعنى يسبق إلى قلبك قبل أن يصل اللفظ إلى أذنك من شدة الوضوح وسلاسة التعبير

الجهة الرابعة: الفصاحة اللفظية في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾

أما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية، فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة، جارية على قوانين اللغة، سليمة من التنافر، بعيدة عن البشاعة، عذبة على العذبات، سلسة على الأسلات، كل منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنسيم في الرقة، ولله در شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر.

ولا تظنن هذه الآية الكريمة مقصورة على ما ذكرت من البلاغة والفصاحة، وإنما هذه مجرد إشارات، لكن من تمعن وتحرى سيجد ما هو أضعاف أضعاف هذه الفوائد، ولعل ما تركت أكثر مما ذكرت، لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإشارة بكيفية اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان، وأن لا علم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ منهما عن المرء لمراد الله تعالى من كلامه، ولا أعون على تعاطي تأويل مشتبهاته، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع على وجه إعجازه، وهو الذي يوفي كلام رب العزة من البلاغة حقه، ويصون له في مظان التأويل ماءه ورونقه، ولكَم من آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها، واستلبت ماؤها ورونقها، إن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم، فأخذوا بها في مآخذ مردودة، وحملوها على محامل غير مقصودة، وهم لا يدرون ولا يدرون أنهم لا يدرون، فتلك الآي من مآخذهم في عويل، ومن محاملهم على ويل طويل: {وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف:104.

وقد تصدى أبو حيان أيضاً في تفسيره المسمى بالنهر للطائفها، وساق أحداً وعشرين نوعاً من البديع.

وألف السيد محمد بن إسماعيل الأمير رسالة مستقلة في هذه الآية الكريمة سماها: النهر المورود في تفسير آية هود، وهي في استخراج أوجه الإعجاز والبلاغة في هذه الآية الكريمة، أورد تلك الأنواع البديعية أيضاً وهي: المناسبة، والمطابقة، والمجاز، والاستعارة، والإشارة، والتمثيل، والإرداف، والتعليل، وحسن التقسيم، والاحتراف، والإيضاح، والمساواة، وحسن النسق، والإيجاز، والتسهيم، والتهذيب، وحسن البيان، والتمكين، والتجنيس، والمقابلة، والذم، والوصف.

إن هذا البحث يحتاج إلى تفصيل أكثر من هذا، لكن هذا أنموذج من الثمرات التي يقطفها العلماء من علم إعجاز القرآن الكريم، انظر كم من عناوين لبعض البحوث لا نعرف معناها مثل: التسهيم والاحتراف والإيضاح، وغير هذه من الاصطلاحات الفنية في علم البلاغة، ومن خبرها وسبر غورها فإنه يستطيع أن يتذوق حلاوة القرآن الكريم.

فهذه إشارة وأنموذج لما يمكن أن يستنبط من الكنوز من كلام الله سبحانه وتعالى فإنه {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ} [فصلت:42].

فإذاً علم الإعجاز علم ضخم جداً وعلم عالي القدر، وهو من أشرف علوم القرآن الكريم([53]).ونكتفي بهذا القدر من الأمثلة فإن فيها كفاية فيما أحسب فهي تدل دلالة واضحة على أن التعبير القرآني تعبير مقصود كل لفظ فيه وضع وضعاً فنياً مقصوداً وأنه لم يقدم لفظة على لفظة إلا لغرض يقتضيه السياق. وقد روعي في ذلك التعبير

القرآني كله ونظر إليه نظرة واحدة شاملة. وأظن أن ما مر من الأمثلة تريك شيئاً من فخامة التعبير القرآني وعلوه وأن مثل هذا النظم لا يمكن أن يكون في طوق بشر فسبحان الله رب العالمين. "([54])

## الخاتمة:

إن القرآن الكريم معين لا ينضب وجنة فيحاء لا ينقضي ثمرها، بل يظل ملء السمع والبصر، يملك الفؤاد ويستولى على العقل والوجدان... وإننا بعد هذا التطوّف الّذي منّ به الرحمن نذكر من النظرات ما يأتي:

أولاً: كان لأسلوب التقديم سمة أسلوبية بالغة الأثر في معرفة خواص تراكيب الكلام والسر في التقديم كان حسب السياق ومقتضى الحال .

ثانياً: كان لأسلوب التقديم والتأخير سمة التغلغل والانتشار في كافّة سياقات القرآن – تقريباً – وكان لمشاهد الآيات الكونية نصيباً وافراً منها ولها دور بارز في أساليبه وما حملته من مشاهد كونية وهذا التقديم اضفى رونقا وجمالاً في رسم المشهد الكوني.

ثالثاً: إن الإعجاز البلاغي لأسلوب التقديم والتأخير إعجاز فيّاض عظيم التدفّق لا يقع في حصر.. وسبيل التعرّض لفيوضاته وتلمّس أسراره لا يقف عند حد في كلمة أو جملة، بل يشهد السياق في مجمله بستاناً مورقاً يانع الثمار والأزهار، لا تكاد تمد يداً لقطف ثمرة إلا وتجذبك الأخرى والأخرى فلا تستطيع الفراغ حتى تأتي على البستان كلّه.

رابعاً: الألفاظ القرآنية لها دلالتها في سياق الجملة فلا يمكن أن يرادف لفظٌ لفظاً آخر فيتساوى معه في المعنى تمام المساواة، بل إن الكلمة ذاتها لتتكرر في أكثر من سياق لتدلّ على معنى آخر مغاير في كل سياق، فإذا نظرنا إلى دلالة الكلمة المختارة في ظل تقديمها أدّى ذلك إلى إبراز المعنى في قوّة وجلاء، وساعد على تصوير المشهد في تدفّق وحياة.

خامساً: استطاع أسلوب التقديم أن يخاطب العقل والوجدان في آن معاً، وكان له القدرة على حمل السامع أو القارئ على المشاركة في تفعيل الموقف القرآني وما يبثّه من معان وآداب رفيعة، فنشّط الخيال وحرّك الأذهان والعقول.

سادساً: أن الله سبحانه وتعالى يخاطب الجمادات بصفة من يعقل ويسمع وهذا دليل على أنها تأتمر بأمره جلا وعلا فهي طائعة منقادة لأمره سبحانه كما في قوله يا أرض ابلعي ماؤك

الهوامش

[1] الإعجاز البياني للقرآن د.عائشة عبد الرحمن ـــ ط2 – دار المعارف بمصر – 1987 – صفحة 94
[2] دلائل الإعجاز :عبد القاهر الجرجاني – تحقيق محم
د خفاجي – مكتبة القاهرة بمصر – 1980 – الصفحة 142
[3] المصدر نفسه: 143
[4] ينظر: مقدمة التقديم والتأخير في النظم القرآني الكريم بلاغته.. ودلالاته بقلم د. سامي عطا حسن
[5] دلائل الإعجاز: 96/1
[6] لمسات بيانية : 476/1، وينظر : المصدر السابق
المؤلف: فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي
[7] البرهان في علوم القرآن : 3 / 233.
[8] أساليب بلاغية: 168/1، احمد مطلوب
[9] ينظر: التقديم والتأخير في النظم القرآني الكريم بلاغته.. ودلالاته بقلم د. سامي عطا حسن:2
[10] اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل
المؤلف: محمد علي السَّراج
مراجعة: خير الدين شمسي باشا
الناشر: دار الفكر - دمشق
الطبعة: الأولى، 1403 هـ - 1983 م
[11] أسرار البيان في التعبير القرآني:24/1
[12] ينظر: لتقديم والتأخير في النظم القرآني الكريم بلاغته.. ودلالاته بقلم د. سامي عطا حسن: 2
[13] بحوث بلاغية، د/ أحمد مطلوب، دار الفكر لنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1987م، ص 41.
رابط الموضوع https://www.alukah.net/sharia/0/140894/#ixzz77Gk0EiQR :
[14] الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، د/ عز الدين علي السيد، دار الطباعة المحمدية الأزهرية، 1973م .رابط الموضوع https://www.alukah.net/sharia/0/140894/#ixzz77GlE1oAv :
[15] ينظر: البرهان في علوم القرآن :233/3،ودلائل الاعجاز:106/1، اسرار البيان في تعبير القرآن:25/1 ، اساليب بلاغية :168/1
[16] ينظر: المصدر نفسه،
[17] ينظر: البرهان في علوم القرآن: 233/3
[18] ينظر: دلائل الإعجاز: 106/1
[19]ينظر: المصدر نفسه: 106/1
[20] لمسات بيانية:310/1
المؤلف : الدكتور فاضل صالح السامرائي
http://www.ahlalhdeeth.com
[الملف كتاب إلكتروني ، ولا يوجد مطبوعا]
[21] ينظر: لمسات بيانية :310/1
[22] ينظر: لتقديم والتأخير في النظم القرآني الكريم بلاغته.. ودلالاته بقلم د. سامي عطا حسن: 8، وينظر : المصدر السابق:311
[23] أسرار البيان في التعبير القرآني: باب التقديم والتأخير
[24] ينظر: علم المعاني:136/1
[25] ينظر: ملتقى أهل اللغة 52/1
[26] البرهان للزركشي 285/3
[27] الكشاف: 355/2
[28] اعراب القرآن وبيانه: 268/4
[29] أسرار البيان في التعبير القرآني:62/1_63
[30] تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): 339/11
[31] الختارين: 272

[32] أرشيف منتدى الفصيح : باب أسلوب التقديم والتأخير المعنوي
[33] الموسوعة القرآنية: 796/1 ، المؤلف: إبراهيم الإبيارى ، القرن: الخامس عشر ، الناشر: مؤسسة سجل العرب
سنة الطبع : 1405 ق
[34] المصدر نفسه: 801/1
[35] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر:45/2.
[36] أسرار البيان في التعبير القرآني:59
المؤلف: فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي:
[37] آيات الانواء الجوية في القرآن الكريم دراسة بلاغية:53
[38] أسرار البيان في التعبير القرآني باب التقديم
[39] التحرير والتنوير: 46/19
[40] ينظر: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور:177/1
نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (المتوفى: 637هـ) المحقق: مصطفى جواد، الناشر: مطبعة المجمع العلمي، عام النشر: 1375هـ / وينظر: إعراب القرآن وبيانه: 25/7
[41] الجدول في إعراب القرآن الكريم:29/19
[42] التحرير والتنوير:49/19
[43] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 37/2_38
[44] المصدر نفسه: 39/1
[45] المصدر نفسه: 41/1
[46] التفسير القرآني للقرآن : 1591/15
المؤلف : الدكتور / عبد الكريم الخطيب
دار النشر : دار الفكر العربي - القاهرة
[47] المصدر السابق :1598/15
[48] زاد المسير في علم التفسير:485/6
عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي
سنة الولادة 508/ سنة الوفاة 597
الناشر المكتب الإسلامي
سنة النشر 1404
مكان النشر بيروت
المؤلف : جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (المتوفى : 597هـ)
[49] التحرير والتنوير:303/22
[50] الكشاف:
[51] ينظر: عرض وقفة اسرار بلاغية سورة هود
[52] نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد : 232/2 المؤلف: أبو العباس البسيلي التونسي (المتوفي 830 هـ)
[53] تفسير القرآن الكريم : 7/84_13 المؤلف: محمد أحمد إسماعيل المقدم
[54] ينظر:أسرار البيان في التعبير القرآني:59/1

**المصادر باللغة الإنجليزية**

1- The graphic miracle of the Qur'an, Dr. Aisha Abdel Rahman – 2nd floor – Dar Al Maaref in Egypt – 1987 – page 94

2- Evidence of Miracles: Abdul Qaher Al-Jarjani - Muhammed Investigation Dr. Khafagy - Cairo Library in Egypt - 1980 - page 142

3- See: Introduction and delay in the Noble Qur'anic systems, its eloquence.. and its implications by Dr. Sami Atta Hassan
4- Evidence of miracles: 1/96>
5- The Qur'anic Encyclopedia: 1/796, Author: Ibrahim Al-Ibiari, Century: Fifteenth Century, Publisher: Arab Record Foundation
6- Uncover mysteries facts download
Author: Abu al-Qasim Mahmoud bin Amr bin Ahmed, Al-Zamakhshari Jar Allah (died: 538 AH) Publisher: Dar Al-Kitab Al-Arabi - Beirut Edition: Third - 1407 A.H Number of parts: 4
7- The Great Mosque in the manufacture of the system of speech and slander
8- The proverb in the literature of the writer and poet.
9- Secrets of the statement in Quranic expression:
10- Author: Fadel bin Saleh bin Mahdi bin Khalil Al-Badri Al-Samarrai:
11- Rhetorical Research, Dr. Ahmed Matlab, Dar Al-Fikr for Publishing and Distribution, first edition, 1987 AD, p.
12- Thread link: https://www.alukah.net/sharia/0/140894/#ixzz77Gk0EiQR
13- The Prophet's Hadith from the Rhetorical Perspective, Dr. Izz Al-Din Ali Al-Sayed, Muhammadiyah Al-Azhar Printing House, 1973 AD. Thread link: https://www.alukah.net/sharia/0/140894/#ixzz77GlE1oAv
14- Presentation of the rhetorical secrets pause of Surat Hud
15- Jokes and Warnings in the Interpretation of the Glorious Qur'an Author: Abu al-Abbas al-Basili al-Tunisi (died 830 AH)
16- Al-Jami` Al-Kabeer fi Al-Nazm Al-Nawad from Al-Kalam and Al-Manthur:
17- Nasrallah Ibn Muhammad Ibn Muhammad Ibn Abd al-Karim al-Shaibani, al-Jazari, Abu al-Fath, Zia al-Din, known as Ibn al-Atheer, writer (died: 637 AH) Investigator: Mustafa Jawad, Publisher: Scientific Complex Press, year of publication: 1375 AH /
18- The path in the science of interpretation increased: Abdul Rahman bin Ali bin Muhammad al-Jawzi Year of birth 508 / year of death 597 Publisher The Islamic Bureau Publication year 1404 Place of publication Beirut Author: Jamal Al-Din Abi Al-Faraj Abdul Rahman bin Al-Jawzi (died: 597 AH)
19-